

جدلية العلاقة بين أولياء الصوفية والسلطة الحاكمة بإقليم طرابلس الشيخ عبد السلام الأسمر (880 – 981 هـ / 1475 – 1573 م) " نموذجاً "

أسماء موسى زايد

عضو هيئة تدريس - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة بني وليد - ليبيا

asmamusazaid@gmail.com

على محمد سميو

عضو هيئة تدريس - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة مصراته - ليبيا

a.smew@art.misurataau.edu.ly

ملخص البحث :

لقد نجح إقليم طرابلس ومنذ فترة مبكرة في استقطاب العديد من التجارب الولائية والصوفية، اشعت على محيطها المباشر وأحيانا البعيد، وجعلت له مكانة مميزة ومسرحا ومقرا لحياة روحية ثرية تركزت حول الزوايا والمساجد والرباطات، تميز عدد كبير من صوفيته بمستوى علمي جمع بين الفقه والتصوف، أو العلم والتصوف، وكان لهم دورهم في نشر وإشاعة الثقافة الدينية في عصرهم؛ وعلى الرغم من محافظة أغلب المتصوفة على تقليد زهدي بقي حيا ينتج نمودجا ولائيا أهم مقوماته؛ الصيام، والقيام، والورع، والنسك، والزهد، والانقباض، والخمول، والانقطاع والتقليل من المأكّل، والملبس، وتمنع عن تولي القضاء، ومن التعامل مع السلطان

إلا أن السلطة الحاكمة غالبا ما وقفت من هذه الفئات المتصوفة موقفا عدائيا، بعد أن رأت تلك الفئات أن الانعزال التام كان امرا ينتجه الماضي بظروفه، ولم يعد باستطاعتهم التزامه، لما شهده عصرهم من تفاقم المحن، وتجبر الظلمة من اصحاب السلطة والجاه الذين انساقوا وراء شهواتهم ورغباتهم المدمرة في إطالة أمد بقائهم، فحاربوا أولياء الله من الصوفية، ولعل المحن التي مر بها الشيخ عبد السلام الأسمر (880-981هـ/1475-1573م)، تعطي صورة واضحة عن جدلية العلاقة بين أولياء الصوفية والسلطة الحاكمة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس والسادس عشر الميلاديين .

الكلمات المفتاحية: جدلية ، أولياء ، الصوفية ، طرابلس

مقدمة :

لقد نجح إقليم طرابلس ومنذ فترة مبكرة في استقطاب العديد من التجارب الولائية والصوفية ، اشعت على محيطها المباشر وأحيانا البعيد ، وجعلت له مكانة مميزة ومسرحا ومقرا لحياة روحية ثرية تركزت حول الزوايا والمساجد والرباطات ، وتميز عدد كبير من صوفيته بمستوى علمي جمع بين الفقه والتصوف ، أو العلم والتصوف ، وكان لهم دورهم في نشر وإشاعة الثقافة الدينية في عصرهم ؛ ورغم محافظة أغلب المتصوفة على تقليد زهدي بقي حيا ينتج نمودجا ولائيا من أهم مقوماته : الصيام ، والقيام ، والورع ، والنسك ، والزهد ، والانقباض ، والخمول ، والانقطاع والتقليل من المأكّل ، والملبس ، وتمنع عن تولي القضاء ، وعن التعامل مع السلطان .

إلا أن السلطة الحاكمة غالبا ما وقفت من هذه الفئات المتصوفة موقفا عدائيا ، بعد أن رأت تلك الفئات أن الانعزال التام كان أمرا ينتجه الماضي بظروفه ، ولم يعد باستطاعتهم التزامه ، لما شهده عصرهم من تفاقم المحن ، وتجبر الظلمة من اصحاب السلطة والجاه الذين انساقوا وراء شهواتهم ورغباتهم المدمرة في إطالة أمد بقائهم ، فحاربوا أولياء الله من الصوفية ، ولعل المحن التي مر بها الشيخ عبد السلام الأسمر (880 – 981 هـ / 1475 – 1573 م) ، تعطي صورة واضحة عن جدلية العلاقة بين أولياء الصوفية والسلطة الحاكمة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين / الخامس والسادس عشر الميلاديين ، فكيف انبثقت مأساة الشيخ ، وما أسبابها ، وكيف تطور الأمر ليصل لحد النفى والتعقب والمطاردة بهدف القضاء عليه ؟ وهل رفضه التعامل مع السلطة السياسية ، وتمكنه من إقامة سلطة موازية ذات رافد ديني – روحي - اجتماعي ، مرتبطة بالعامّة وتزايد أعداد المريدين الوافدين عليه ، كانت السبب في محنة بحياته ولعائلته بعد وفاته ؟ وهل أن المجتمع الطرابلسي في تلك الفترة التي عاش فيها الشيخ عبد السلام الأسمر ، كان يعاني من أزمة أو تأزم شكّل أرضية سمحت لولايته بالانتعاش ، باعتبارها حركة كاريزماتية(1) ؟ وهل أن ظروف الفوضى السياسية ، وفقدان

¹ (الكاريزماتية بالمفهوم الذي خده فيبر : " نسّمى كاريزما الصفة الخارقة للعادة ... لشخص وهب قوى أو صفات تفوق الطبيعة أو تفوق الإنسان أو أقله تخرج عن الحياة اليومية وليست في متناول عامة البشر ، أو يُعتبر مبعوثا من الله أو مثالا يحتذى وبالتالي يُنظر إليه كزعيم " نللي سلامة العامري : الولاية والمجتمع ، دار الفارابي ، بيروت ، 2006 م ، ص 252 .

جدلية العلاقة بين أولياء الصوفية والسلطة الحاكمة بإقليم طرابلس الشيخ عبد السلام الأسمر (880 – 981 هـ / 1475 – 1573 م) " نموذجاً "

الأمن وركود الأوضاع الاقتصادية ، وما نتج عنها من منخقات اجتماعية ونفسي الظلم ، والتسلط ، والفساد ، والحرابة ، والغزو ، والخوف ، والكوارث ، والآفات الطبيعية ، كانت سبباً في البحث عن الحلول البديلة ، ولاسيما مقدرة الولي على حل كل المعضلات بطرق فعلية ، أو وهمية ناجمة عن نفسية تعويضية ؟ .

تجدر الإشارة هنا إلى وجود العديد من المؤلفات التي كُتبت عن سيرة حياة الشيخ عبد السلام الأسمر ومناقبه⁽²⁾ ، غير أن الخطاب المناقبي الوارد بها ، ينسب إلى الشيخ نفوذاً وسلطاناً – سنقف على عينات منهما – جعلاه ليس فقط في علاقة تنافسية مع السلطة الحاكمة في ميادين تدخلها وحتى في فرض سيطرتها ، بل في وضع مَنْ أصبح يجسد السياسي في تلك الفترة ، فإلى أي حد يمكن إضفاء مصداقية تاريخية على ذلك الخطاب الذي لا بد وأن مؤلفه يشارك العامة والخاصة إيمانهم ، واعتقادهم في الأولياء ، وبركاتهم وقدراتهم الخارقة وكراماتهم ، وإلى أي حد يمكن للمؤرخ مجازاة كتب المناقب في الصورة التي ترسمها للولي عبد السلام الأسمر ، في علاقته بصاحب السلطة ؟ ، وإلى أي حد تحتل علاقة الولي بالسلطة السياسية مكانة محورية بالنسبة لعلاقته ببقية المجتمع ولمدى نجاحه في فرض سيطرته ، تلك السيطرة المرتبطة بالنتائج الملموسة وبتلبية المصالح الاجتماعية ؟ وما هو الموقع الذي يحتله الخوف ضمن آليات طاعة الولي ، وبالتالي كأحد مقومات فرض السيطرة الكاريزماتية من خلال استعمال الولي لسلح الدعاء ؟ .

إن خطتنا البحثية المثبتة في تناول تلك الإشكاليات تنطلق من الدراسة التاريخية البحثية ، دون أن نجعل من كرامات الشيخ عبد السلام الأسمر القضية المركزية ، فإن غرضنا الأساس هو معرفة مدى تأثير الأولياء بالفعاليات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، واختيارنا لشخصية الشيخ ، كان له مغزاه باعتباره يجسد العديد من مقومات النموذج الولائي الرائج بإقليم طرابلس في ذلك الوقت ، ولكونه صاحب تصوف طرقي ميّزه عن أقرانه من أصحاب التصوف الشعبي الواسع الانتشار .

كما ونود الإشارة إلى أننا نفتقر إلى مصادر تغطي جوانب البحث ، حيث تعاني الفترة قيد الدراسة من مشكلة عدم وجود مصادر ، مع العلم بوجود تجارب صوفية مميزة بالإقليم⁽³⁾ ؛ أما المنهج التاريخي المتبع ، فهو قائم على فلسفة التاريخ من خلال الاستقراء ، وتتبع الجزئيات ، واستخلاصها من مقارنة جزئيات أخرى للوصول إلى قراءات بعيدة عن المنهج السردى ؛ ولهدف تسهيل الدراسة تم تقسيمها إلى عناوين وهي :

- إقليم طرابلس : الأوضاع السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية به خلال القرنين (التاسع والعاشر الهجري / الخامس والسادس عشر الميلادي) .
- النموذج الولائي الذي يمثله الشيخ عبد السلام الأسمر (مقوماته ، وطريقته ، وإدخاله للبندير ، وما تعرض له حيال ذلك) .
- إشكالية حاجة المجتمع للولي (عبد السلام الأسمر) وكراماته (الوظائف المادية معيشية وأمنية ، والوظائف المعنوية متطلبات الحياة الروحية) .
- علاقة الولي (عبد السلام الأسمر) بالسلطة (شيوخ قبائل ، مفتي ، والي ، قاضي) (الخوف ، وسلح الدعاء ، والانتقام) المدلولات ، والأبعاد ، والنتائج .
- إقليم طرابلس : الأوضاع السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والدينية ، والثقافية به خلال القرنين (التاسع والعاشر الهجريين / الخامس والسادس عشر الميلاديين) :

⁽²⁾ نذكر من تلك المؤلفات : روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع مناقب صاحب الطار ، لمؤلفه كريم الدين البرموني ، مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ عبد السلام ابن سليم وهو تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر - رضى الله عنه - مع بعض الزيادات التي يقتضيها المقام لواضعه محمد بن محمد بن عمر مخلوف ، البحر الطمطم في مناقب الشيخ سيدي عبد السلام والكبريت الأحمر في مناقب الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر والبحر الكبير في مناقب صاحب البندير ، تأليف : سالم بن محمد السهوري ؛ كتاب النور النائر في سيرة الشيخ عبد السلام الأسمر ، تأليف عمر بن جحا ؛ كتاب البرهان ونشر الأزهار تأليف محمد بن علي الزليتنى ؛ وكتاب فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم ، تأليف عبد السلام بن عثمان التاجوري ؛ كتاب فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة سيدي عبد السلام الأسمر تأليف الطيب المصراطي ؛ كتاب الرشاش النوري من كمال ولي الله سيدي عبد السلام الفيثوري ، تأليف أحمد جابر ؛ كتاب القطب الأنور عبد السلام الأسمر ، تأليف أحمد القطعاني ، وغيرها .

⁽³⁾ نذكر منهم الشيخ أحمد زروق البرنسي الفاسي (846 – 899 هـ) كان على درجة عالية من العلم وتمتع بثقافة دينية تشهد المصنفات التي خلفها على مدى رقيها . أحمد بابا التتبيكتي : نيل الإبتهاج بتطريز الذبيح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص 84 – 86 . جاء إلى مصراته سنة 886 هـ / 1481 م وبها استقر حتى وفاته عن عمر أربعة وخمسون سنة ، ابن غليون : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، تحقيق الطاهر الزاوي ، القاهرة ، 1930 م ، ص 170 – 173 . ترك عديد المؤلفات في التصوف اتسم بعضها بالطابع الجدلي كما هو الشأن بالنسبة لكتاب عذّة المرید الصادق من أسباب المقت في بيان الطريقة . التتبيكتي : المصدر السابق ، ص 85 .

يمتد إقليم طرابلس من سُرْت أو تَاوَرْغَا شرقاً ، إلى مدينة قَابِس غرباً ، ومن البحر المتوسط شمالاً ، إلى واحة غَدَامِس ، وبعض الواحات القريبة منها جنوباً(4) ؛ ذلك المجال الجغرافي يدخل ضمن مجال أوسع هو مجال إفريقية ، والتي بدورها تدخل ضمن مجال أكثر رحابة ، ألا وهو المجال المغربي الرابط بين أجزائه بجبل درن ؛ فقلما توجد حواجز عازلة ، باستثناء جبال الأوراس ، ومنطقة الزاب الكثيرة الارتفاع حسب وصف الوزان لها(5) ؛ خلاف ذلك نجد أن السهول ، والهضاب ، والسواحل الممتدة ، كانت بمثابة أماكن مفتوحة ، ومسرح لتحرك متواصل ، وعبور للفتوحات ، والغزوات ، والهجرات ، وقوافل التجار ، والمسافرين ، والحجاج ، ولا يقل أهمية ذلك عن تنقلات الأولياء المتصوفة .

وبما أن المجتمع الطرابلسي لم يكن بمعزل عن التأثيرات الداخلية والخارجية وما يرافقها من تغيرات ديموغرافية مستمرة اقترنت بالتطورات الجغرافية والطبيعية والسياسية ، إذ نجد إن مكوناته البشرية كانت خليطاً من قبائل البربر بمختلف تفرعاتها ، إلى جانب قبائل الأعراب التي دخلت الإقليم على فترات متباعدة كان آخرها هجرات بني هلال وبني سليم ، وما رافقها من تغيرات في البناء الاجتماعي والسياسي داخله ، وإلى جانبهم هناك عناصر من أقليات مختلفة منهم اليهود المستقرين بالإقليم منذ القدم ، أو الوافدين من بلاد الأندلس بعد القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، إضافة إلى النصارى ، والعناصر ذات الأصول الإفريقية ؛ ولا يغيب عن الذكر هجرات أهل الأندلس بعد حرب الاسترداد التي أعقبت سقوط غرناطة آخر المدن الإسلامية هناك

أما عن الأوضاع السياسية فنجد أن إقليم طرابلس خلال القرنين التاسع والعاشر الهجري / الخامس والسادس عشر الميلادي ، كان واقع تحت تأثير أزمة خانقة ويتخبط في الفوضى والتشتت الداخلي كما عانى من الاعتداءات الخارجية على موانئه وشواطئه ؛ فمع ضعف الدولة الحفصية وبداية تاكلها نتيجة لما شهدته من تنافس أمرائها على الحكم ، وتدخلات رجال الدولة من موحدين ، وأندلسيين ، وقبائل مخزنية من الأعراب ، في شؤون الحكم ومنازعتها النفوذ السياسي ، والعسكري ، واستقلالها بالمناطق الطرفية البعيدة عن العاصمة الحفصية بتونس(6) ؛ نجد أن الطرابلسيين حاولوا أن يرفعوا عنهم تهديد الغزاة من البحر ، وتهديد العربان من البر بالالتفاف حول كل مغامر يظهر على المسرح السياسي على حسب تعبير بعض المؤرخين(7) ؛ فانضموا إلى بني غراب الذين تمكنوا من مدينة طرابلس وحكموها لفترة من الزمن تحت مسمى المشايخ شاعت خلالها الفوضى وكثر فيها الهرج والمرج ، وانتهت باستيلاء الأسبان عليها سنة 916 هـ / 1510 م ، حتى تركوها لمنظمة فرسان مالطا سنة 936 هـ / 1530 م ، الذين امتد نفوذهم للمناطق المجاورة للمدينة ، وفرضوا عليها جميعها ضرائب سنوية كانت في الأغلب تجبى بالقوة(8) .

وترافق مع وجود فرسان مالطا بطرابلس ، زيادة نشاط القراصنة العثمانيين بالمنطقة واحتلالهم لقرية تاجوراء التي اتخذوها مركزاً لمحاولات السيطرة على المدينة التي هُزموا أمام أسوارها عديد المرات ، حتى تمكنوا منها بمساعدة أهلها سنة 958 هـ / 1551 م ، لئعلن بعدها ولاية تابعة للدولة العثمانية مما زاد الأوضاع سوءاً(9) .

إضافة إلى الفوضى وعدم الاستقرار السياسي الذي عانت منه مدينة طرابلس ، نجد أن المناطق الساحلية والداخلية بالإقليم كانت تعاني هي الأخرى من التشتت القبلي والتفكك السياسي ، والاجتماعي ، حيث كانت القبيلة هي المكون الأساس للنظام السياسي المعتمد على حكم المشايخ أو قواد البوادي ، الذين تتوافر فيهم خصال ومميزات أهلهم لذلك ، لعل أهمها : أن يكونوا من القبيل الأقوى ، والأكثر عدداً ؛ وقد يكون لهؤلاء دور مزدوج إضافة إلى تسخير أمور القبيلة ، أو التحالف القبلي الذي يراسوه ، فيكونوا أعواناً للسلطة الحاكمة بطرابلس من حيث جمع الضرائب وتوفير الرجال وقت الحرب ، ودور آخر أكثر خطورة ألا وهو قيادة حركات الانفصال بمناطقهم ؛ لذلك تعدد ذكر المشيخات المستقلة التي حكمت سواء

(4) محمد العروسي المطوى : السلطنة الحفصية تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي - دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 م ، ص 566 - 567.

(5) الحسن الوزان : وصف إفريقية ، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 م ، 2 / 102 .

(6) محمد حسن : المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي ، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، تونس ، 1999 م ، 1 / 98 - 149 .

(7) البرغوثي : تاريخ ليبيا الإسلامي ، منشورات الجامعة الليبية ، دار صادر ، بيروت : 1972 م ، ص 396

(8) ابن غلبون : المصدر السابق ، ص 115 ؛ الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، 2004 م ، ص 269 ، البرغوثي : المرجع السابق ، ص 414 ، 421 ، 425 ، 428 .

(9) شارل فيرو : الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ، تعريب محمد عبد الكريم الوافي ، منشورات جامعة قاريونس ، 1998 م ، ص 108 ؛ كوستانزيو برنيا : طرابلس من 1510 إلى 1850 م ، تعريب خليفة التليسي ، الدر الجماهيرية للنشر والتوزيع ، 1985 م ، 46 ؛ ابن غلبون : المرجع السابق ، ص 126 ؛ البرغوثي : المرجع السابق ، ص 473 .

جدلية العلاقة بين أولياء الصوفية والسلطة الحاكمة بإقليم طرابلس الشيخ عبد السلام الأسمر (880 – 981 هـ / 1475 – 1573 م) " نموذجاً "

بتبعية للدولة الحفصية فيما سبق ، أو منفصلة عنها وعن مركز الولاية بطرابلس طوال فترة الاحتلال الأسباني ، وفرسان مالطا ، ومن بعدهم الاحتلال العثماني⁽¹⁰⁾ .

ومن ناحية الأوضاع الاقتصادية ، نجد أن بلاد إفريقية بصفة عامة شهدت منذ نهاية العهد الحفصي ، تقهقر للفلاحة ورزوح الفئات الشعبية تحت وطأة الاستغلال الاقتصادي وكثرة المجابي والأداءات أو الضرائب ، مع ضعف أو انخفاض مداخيل تلك الفئات التي كانت تعيش من الحرث والأرض وبعض الجرف ، وما رافقها من تفاقم الكوارث الطبيعية من جفاف ، واكتساح الجراد ، وتفشي الأوبئة والمجاعات التي غالباً ما تقتربن بارتفاع في الأسعار ، ولاسيما سِعْرَي القمح والشعير ، وانعدام الأمن ، والاستقرار ؛ لأسباب منها النزاعات الداخلية التي تتحكم فيها التوازنات القبلية ، والنزاعات ذات الطابع الاقتصادي حول المجال الرعوي ، والمجال التجاري ولاسيما داخل البلاد ، وتسلبت شتى أنواع البطش ، والتنكيل ، والعنف السياسي على العامة والخاصة⁽¹¹⁾ .

وجثم هاجس الخوف على الناس لاستيلاء اللصوص على الطرقات وكثرة الغارات ، وخراب العمران ، كما برزت مسحة من التشاؤم لدى علماء العصر الذين أكثروا من ذم " أهل هذا الزمان " ⁽¹²⁾ ؛ ولم يكن الأعراب وحدهم مصدر الخوف لدى السكان في تلك الفترة ، بل كان أكثر ما كان يخشاه الناس بالسواحل هو الوقوع في أسر النصارى ، بعد تعدد الغارات الصليبية عليه⁽¹³⁾ ، كل ذلك تزامن مع فترات الأزمات الاقتصادية ، وكثيراً ما عرفت جهات طرابلس آنذاك هول الجوع والتشرد ، حتى أن الكارثة التي سميت بسنة فرارة ظلت راسخة في المخيال الشعبي ، وأضحت مرجعية تاريخية .

إن الاضطراب والفوضى السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية كان لهما أثر كبير في تردي الأوضاع الاجتماعية والثقافية ، حيث تسببت بالإخلال بالبنية الديمغرافية بالموت أو الهجرة باتجاه المناطق الأقل اضطراباً ، والأكثر أمناً⁽¹⁴⁾ ، كما أن كثرة المجاعات ، وتكرر الآفات دفعت بعض القبائل من الأعراب إلى تكوين مجموعات من الفرسان الغازية تمارس الحرابة والخفارة القسرية ، مما دفع الناس إلى مجابتهم بشيء من التخويف والترهيب " بتشديد المساجد والمقامات لأولياء أصحاب الكرامات حتى يهابها المفسدون ... " ⁽¹⁵⁾ ؛ كما أن هاجس الخوف من الوباء كان له انعكاس وتأثير اجتماعي وسلوكي وديموغرافي واقتصادي وغيره ، وكثر التذمر من الزمان وسيطر الشعور باقترب نهاية الكون وساد الخوف والرعب ، مما ساعد على انتشار ثقافة الطرق والزوايا في المجتمع ، ولم تعد مقتصرة على بعض الفئات ، بل شملت عديد الشرائع الاجتماعية⁽¹⁶⁾ .

وتميزت الحقبة محل الدراسة بالانغلاق واستمرار الأزمات الاجتماعية والثقافية ، حيث كانت المدارس بالمدينة ، والزوايا ، وميعاد القبائل بالبادية ، هي الحلقات الثلاث لانتشار الثقافة في ذلك العصر ، فيما اكتسحت ظاهرة التصوف المجتمع ،

⁽¹⁰⁾ التجاني : رحلة التجاني ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، طرابلس ، ص 217 – 218 ، 220 ؛ ابن خلدون : العبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1959 م ، 6 / 86 – 87 ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ، 1872 م ، ص 134 ؛ العروسي المطوي : المرجع السابق ، ص 566 – 567 .

⁽¹¹⁾ وصف الشماخي (ت 928 هـ / 1522 م) زمانه بتفاقم الفتن في البلاد ، وشدة القحط وتزلزل العباد ، وعتو أهل الفساد ، وكثرة الشكوى ، وقلة السداد . كتاب السير ، تحقيق محمد حسن ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2009 م ، 2 / 809 ؛ محمد حسن : المرجع السابق ، 1 / 530 – 551 .

⁽¹²⁾ وصف العبدري أوضاع البلاد بقوله : " ... بحر جيوش وغارات ، وقفر نواصب وملامات ... " الرحلة المغربية منشورات بونة للبحوث والدراسات ، الجزائر ، 2007 م ، ص 133 ؛ والحسن الوزان (عاش ما بين 889 – 944 هـ) رحلاته بين 910 – 927 هـ ، أشار إلى سكان بعض المناطق بقوله : " ... هم أكثر لصوص الدنيا وأكثرهم خديعة ومكراً ... " ، المصدر السابق ، 2 / 112 ؛ وذكر العياشي الذي مر بالبلاد بين 1059 و 1074 هـ أن " خارج مدينة طرابلس وسائر عمالتها أكثر البلاد سرقة ، وأعرابها أعلم الناس باستعمال الحيل في ذلك ، مع إقدام وهجوم بالليل أن تمكنوا من ذلك " الرحلة العياشية ، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي ، دار السويدي ، 1 / 177 .

⁽¹³⁾ التجاني : المصدر السابق ، ص 210 ، العبدري : المصدر السابق ، ص 133 ، الوزان : المصدر السابق ، 2 / 112 ، ابن عبد السلام : كتاب الاشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات ، مكتبة النجاح ، طرابلس ، ص 88 – 89 ، 91 ، 100 – 101 ، 103 .

⁽¹⁴⁾ البرزلي : جامع فتاوى البرزلي ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2002 م ، 2 / 481 ؛ الشماخي : المصدر السابق ، 2 / 358 ، 374 ، 383 ؛ محمد حسن : المرجع السابق ، 1 / 239 ؛ ابن مخلوف : تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار ، مكتبة زهران ، القاهرة ، 1997 م ، ص 68 – 69 . مصطفى عمران رابعة : رسائل الأسمر إلى مريديه ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، 2003 م ، ص 15 .

⁽¹⁵⁾ الباروني : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، ص 141 . كثيراً ما نجد اشارات إلى التخوف من غارات الاعراب وظلمهم واخذهم للضرائب (الجراية) بالقوة ينظر : ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 79 ، 91 ، 318 .

⁽¹⁶⁾ محمد حسن : المرجع السابق ، 2 / 609 .

الذي كان يعاني من التآزم ، ولكنها لم تكن بمستوى يؤهلها للتغلب على الاستبداد السلطوي والركود الحضاري ، ومما زاد في تدعيم نفوذ الصوفية خلال القرن التاسع هجري / الخامس عشر ميلادي ، هو حملها للواء المقاومة ضد الأسباب والبرتغال ، في فترة احتدم فيها الصراع بين الإثنيتين ولاسيما بالغرب الأقصى الذي مثل عاملاً أساسياً في انتشار الصوفية وزواياها بإفريقية وإقليم طرابلس الذي تسربت إليه عديد الفرق (17) ، ومثل منطقة جذب واستقطاب لمن وقع اضطهادهم من صوفية أو غيرهم ، حيث شهد وفادة العديد من النخب الصوفية المغربية والأندلسية ، منهم من استقر به حتى وفاته ومنهم من أقام به لمدة قبل أن يغادره لبلده أو لغيره ، كما كان إقليم طرابلس ملاذاً لمن كانت أفكارهم ومذاهبهم الصوفية موضع نقد من طرف علماء الظاهر ببلاد المغرب الأقصى أو بإفريقية (18).

جميع تلك الأوضاع المتردية سياسياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ، وثقافياً ، رشحت الشيخ الأسمر وغيره من الأولياء إلى لعب دور يتسم بكثافة تدخله وتشعبه وامتداده إلى مختلف الميادين ، ولكن هل أن تلك العوامل تكفي وحدها لتفسير اكتساح الولي لكامل المجالات ، وتأثيره فيها على النحو الذي تنطب كتب المناقب في وصفه ؛ وهل هي وحدها كافية لتفسير السلطة التي تنسبها إلى الأولياء والحاجيات المتزايدة التي التجأ بها الناس إليهم ، والوظائف التي طلب إليهم الاضطلاع بها (19) ؟.

– الشيخ عبد السلام الأسمر والنموذج الولائي الذي مثله (مقوماته ، وطريقته ، وادخاله البندير وما تعرض له حيال ذلك) :

مثل الشيخ الأسمر " القدوة العمدية الصالح العالم العامل ، شيخ زمانه ، ووحيد عصره وأوانه المربي ، الواصل ، القطب ، الغوث المكاشف ذو المقامات العلية ، والأحوال السنية ، والأفعال المرضية شيخ الطريقة ، وإمام أهل الحقيقة " (20) ، النموذج الولائي الأكثر رواجاً وانتشاراً خلال تلك الفترة ، ولاسيما من حيث الثقافة ، والزهد ، والتورع ، والبنية الخوارقية ، وتشير مناقبه ووصاياه إلى ثقافته القرآنية ، والنحوية ، والفقهية ، والحديثية الجيدة واتباعه الحسن للسنة ، وأنه كان عالماً بعبارة الرؤية (كشف له الحجاب حتى مشارق الأرض ومغاربها وما فوق الفوق وما تحت التحت ما هجس هاجس في قلب إنسان إلا وأظهرني الله عليه) ، كما تروي أنه كان من طلبة العلم المجدين فأخذ بداية حياته عن مشايخ زليتين ، ثم انتقل للأخذ عن الشيخ عبد الواحد الدوكالي (توفي بالقرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) بزوايته في مسلاته لمدة سبع سنوات ؛ اتصل بعده بثمانين شيخاً ، وجميعهم أجازوه واعترفوا بعلمه ونبوغته (21) .

أما نمط عيشه وزهده فجاء في مناقبه أن لباسه من الصوف ، فكان يلبس فوق مرقعته الثياب البيض ويتعمم بعمامة بيضاء أو خضراء ثم يتنقب بها ويرخي عذبتها حتى لا يرى منه في غالب أحواله إلا عيناه ، ولا ينزع ذلك النقاب إلا إذا اختلا مع أصحابه وبأسطهم فإذا رأى عامياً رد النقاب ، وكان يتختم بخنصر يده اليسرى بخاتم ثمنه أقل من درهم ، وكان له معول من شجرة الزيتون ينقله في يده ، مربع على أربعة أوجه ، مرسوم في الوجه الأول باسم الله الكافي ، وفي الثاني الغني الفتاح ، وفي الثالث الرحمن الباقي ، وفي الرابع الرحيم الرزاق ، ويلبس النعل الأصفر الطرابلسي ، والمسد الكامل السائر لكعبيه ، والمداسة القيروانية ، وتارة يلبس الخف والجورب مع النعل الأصفر ، وينهى عن لباس النعل الأسود وكل السواد مدة حياته (22) ؛ أما بكاؤه فهو الآخر مشهور ، وكان مجاب الدعوة ، كما كان مهاباً الجانب من الخاصة والعامة كما تتحدث مناقبه عن ورعه وعن تورعه عن أكل الحرام ، والنذور من عطايا الناس (23) .

ولم يكن الشيخ فقط من يجسد النموذج الولائي بل أيضاً أجداده وأهل بيته بدأ فجده سليمان مثل نموذج الولي المرابط المتعبد المتورع ، المتوفي بجهاد النصاري في طرابلس دفين مقبرة الشيخ الشعاب (24) ؛ في حين نجد نسبه من جهة أمه يتصل بالولي عبد السلام بن مشيش العلمي (ت 626 هـ) شيخ أبي الحسن الشاذلي (ت 656 هـ) (25) ؛ ووالده

17 (المرجع نفسه ، 2 / 743 – 744 .

18 (التجاني : المصدر السابق ، ص 220 ، 251 ، 261 ؛ ابن غلبون : المرجع السابق ، ص 170 – 173 .

19 (حول تأثير الأولياء على المجتمع الحفصي ينظر : نللي سلامة : المرجع السابق ، ص 251 – 417 .

20 (هكذا قدم له القاضي ابن مخلوف في مناقبه : المصدر السابق ، ص 66 .

21 (المصدر نفسه ، ص 120 ؛ مصطفى عمران رابعة : المرجع السابق ، ص 23 – 26 .

22 (ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 77 .

23 (ابن عبد السلام : المصدر السابق ، ص 48 – 49 ، 64 .

24 (ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 68 – 69 ، مصطفى عمران رابعة : المرجع السابق ، ص 15 .

25 (ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 75 .

جدلية العلاقة بين أولياء الصوفية والسلطة الحاكمة بإقليم طرابلس الشيخ عبد السلام الأسمر (880 – 981 هـ / 1475 – 1573 م) " نموذجاً "

سيدي سليم من رجال الله الصالحين له كرامات ، وإشارات ، وخرق عادات ، رغم كونه أمياً لا يقرأ ، ولا يكتب ، وكان يشفع عند الحكام ، ظهرت عليه علامات أهل الباطن ، وهو بتونس ، مما عرضه لمحنة كادت أن تؤدي بحياته لولا تدخل أحد أولياء تونس فشفع له⁽²⁶⁾ ، ومن شيوخه وأصحابه الشيخ عبد الله العبادي ، والشيخ محمد عبد الرحمن الخطاب (ت 945 هـ) ، والشيخ علي العوسجي (ت 925 هـ) ، والشيخ عبد النبي بن عبد المولى المشهود لهم بالكرامات وخوارق العادات ، وكذلك أولاده الخمسة عشر الذين ورثوا الولاية من بعده⁽²⁷⁾ ، وخالته مباركة التي تكفلت بإمداده بالطعام طوال فترة إقامته بقلعة سوف الجين ، كم وجدت من بين مريديه نساء من بينهن سالمة بنت سيدي خليفة الشوشين ؛ أي أنّ التصوف لم يكن ذكورياً ، ورغم شح المعلومات عن ظاهرة التصوف النسائي ، إلا أننا وجدنا بعض الإشارات إليهن كونهن عابدات أو زاهدات أو متصوفات مما يدل على وجود تلك الظاهرة⁽²⁸⁾ ، وربما كان لهن تأثيرهن على تيار التصوف بإقليم طرابلس خلال تلك الفترة ولكن لا يتسع المجال للخوض فيه .

أما على صعيد المثال الأعلى الولائي ، فإنه يجسد الكثير من مقومات النموذج الولائي منها : تعبد بجل زغوان على عادة كبار الصوفية بإفريقية ، وكذلك علاقته بكبار علماء الصوفية بعصره (الشيخ عبد الواحد الدوكالي ، والشيخ أحمد زروق وغيرهما) وثقافته الفقهية والقرآنية (كان يقرئ بالسبع قراءات) ، ولبسه الصوف والنقل من الطعام وإحياء الليل حتى سمي بالأسمر ؛ أما طريقته التي عُرفت بالسلامية أو الجذب - انشاد الأشعار الصوفية باستخدام البندير _ فقد كانت محل نقد وإنكار من قبل شيوخه ، ولأسيما الشيخ عبد الواحد الدوكالي الذي سجنه ، ولم يعف عنه حتى تدخل بينهما الشيخ فتح الله أبو رأس القيرواني (ت 891 هـ) أستاذ الدوكالي وصديقه⁽²⁹⁾ .

ولقد جسدت ولايته عدداً من الظواهر التي أصبحت تكتسي أهمية وأبعاداً جديدة في حياة الأسمر ؛ فمثلاً ظاهرة تدخله لنصرة مظلوم أو لفك أسر أو لرفع مظلمة مع تشعب وتعدد هذه التدخلات (سقاية الماء ، فك الأسر وفيه تجاوزت سلطته نطاق إقليم طرابلس حيث بلغ صيته ودائرة قدرته بلاد الروم في قصة عسيلة : " ... يا عسيلة ما دونك من رقرق مالح ... واللي ما يجيب عسيلة ما يجي ولي صالح ... ")⁽³⁰⁾ وما للقصة من بُعد اجتماعي مازال يتردد صده إلى يومنا هذا ؛ ورفع مظلمة عن طالب نصرته التي اقترن الجانب السياسي منها بأبعاد قيادية وزعامية جديدة ، وهذا ما توحى به قصة الرجل الذي سجنه الوالي العثماني مراد آغا (958 – 963 هـ / 1551 – 1555 م) ، المسمى عبد الدائم الطرابلسي في قضية أموال كانت عليه فدعى عليه الرجل ، فأصيب مراد آغا بمرض في مقعده طال به و أعيا أطباءه ، فسارع إلى زيارة الأسمر في زاويته صحبة ألف فارس من حرسه وجنوده ، ملتمساً دعاء الأسمر وبركاته ، ومنح زاويته الكثير من الامتيازات بحيث أصبح لها حرمة دينية ، وعسكرية ، وصار من يأوي إليها من الجناة لا يمكن إخراجهم حتى لا يتم هضم حرمة والاستهانة بقدره⁽³¹⁾ .

ثالثاً : إشكالية حاجة المجتمع للولي (عبد السلام الأسمر) وكراماته (الوظائف المادية معيشية وأمنية ، والوظائف المعنوية متطلبات الحياة الروحية) :

يُعرف الولي : بأنه العارف بالله تعالى وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات المجتنبة المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات ، وهو من تولى الله أمره بالخصوصية مع مشاهدة أفعال الحق سبحانه ؛ والولاية محض اصطفاء من الله تعالى لعبده ، وهناك الولاية الخاصة والعامة ؛ خاصة لا تتال بالعمل بل بالاختصاص الإلهي كالنبوة ، والعامة قد تتال بالعمل ؛ أما الأولياء فهم غير معصومين ، وإنما يمتازون على الناس بالمعارف الربانية ، وكرامتهم أكثر ظهور ، ولهم

⁽²⁶⁾ المصدر نفسه ، ص 78 .

⁽²⁷⁾ المصدر نفسه ، ص 214 – 215 ، مصطفى عمران رابعة : المرجع السابق ، ص 54 ، 81 .

⁽²⁸⁾ نذكر منهم على سبيل المثال : أمي مباركة ، وأمي عزيزة ، والمجنوبة يزّا ، والمجنوبة طغفاء بنت سيدي مفتاح وغيرهن . ابن عبد السلام : المصدر

السابق ، ص 48 – 50 ، 52 ، 63 ، 68 ، 93 – 94 .

⁽²⁹⁾ الحشائي : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، تقديم علي المصري ، دار لبنان ، بيروت ، 1965 م ، ص 186 . مصطفى عمران رابعة : المرجع السابق ، ص 27 – 30 .

⁽³⁰⁾ كريم الدين البرموني : روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطار ، النص الكامل ماعدا رسائل الشيخ الأسمر لمريديه ، تحقيق ودراسة عبد الحميد الهرامة ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، 2009 م ، ص 122 .

⁽³¹⁾ التاجوري : فتح العليم في مناقب عبد السلام بن سليم ، دار الكتب الوطنية ، ص 59 . مصطفى عمران رابعة : المرجع السابق ، ص 44 . ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 17 .

خوارق للعادة ولكنها غير مقارنة لدعوى النبوة ، وهي على قسمين : ظاهرة وباطنة ، كرامة حسية كالمشي على الماء ، وكرامة معنوية ، وهي الفوقية⁽³²⁾ .

وتمثل الكرامات التي تعج بها كتب المناقب مظهرًا من مظاهر السيطرة الكاريزماتية للولي عبد السلام الأسمر ، الذي أصبح يمارسها والتي تقوم على أساس عاطفي ، وتفترض الثقة ، والاعتقاد التامين في تخصص استثنائي ، فجاءت مناقبه تحمل الكثير من الجموح في الخوارق والمخيلة والتصرف في قوانين الطبيعة وبخرق حدود المعرفة الإنسانية (يُشير على المطر فتصب ، وعلى الريح فيسكن لوقته ، وعلى الماء الأجاج فيصير عذبا ، وعلى الرحي فتطحن من غير واسطة ، ويشير على النار فتخمد وتبرد ، يشير على الدف فيضرب نفسه بنفسه بدون واسطة ، وكانت له سبختان واحدة بيده ، والأخرى معلقة في وتد ، فإذا سبح بالتي في يده حبة تسبح التي في الوتد حبة من غير واسطة ، وركوع النبات والشجر معه وسجودها لسجوده ، سقيه الماء لأصحابه بضربه من معوله على الحجر ، وإطعامهم من أربعة صيعان تمر فزاني ومثل ذلك من دقيق الشعير ، وهم خمسة عشر رجلاً لمدة طويلة فما نقص ، ورؤية النبي مناما وبقطة ومشاورته في جميع أموره ، ورؤيته للخضر ، ويكلم الحيوانات وتستغيث به ، وأنه دائم الحضور للمستغيث به في الشدائد ، وقدرته على معرفة أسرار الغيب من خلال الكشوفات والإشارات الإلهية التي وهبته القدرة على معرفة الأجل لابنه عمران ، بل ورد ملك الموت عنه بعد أن زيد له في عمره ثلاثين عاما ، بالمجمل عدّد ابن مخلوف في كتابه تنقيح الأزهار ما يقرب من 80 كرامة⁽³³⁾ .

ويمكن تقسيم الكرامات وفقا لنوعية الوظيفة المراد تحقيقها ، فجدد الوظائف المادية معيشية ، وأمنية منها إشفاء المرضى (بواسطة الرقية ، والبصق مثلا) ، وإطلاق السجناء ، وفك الأسر ، والإتيان بهم ، والإبراء ، وتأمين من لجأ إليه في حياته ، وإشباع شهوات الأطفال والنساء من المأكّل ، وتوفير الرزق ، وتوفير المال ، وسقاية زرع حل به العطش ، وكرامات متصلة بالأرض ، والحرث ، وإطعام الفقراء ، وإغاثة المسافرين ، والوفاء ، وإيواء النساء ، والتكفل بهن (إطعامهن والقيام بحاجياتهن) وعق عبد ، والترويض ، والانتقام ، والاقتصاص من ظالم ، وحضوره في الشدائد عند التوسل به حيا وميتا⁽³⁴⁾ .

ونجد أن الكرامات المتعلقة بإطعام الطعام كثيرة الحضور ، يفسرها الوضع الاقتصادي الذي تسيطر عليه القلة ، والعوز ، وتتخلله المجاعات ، وفترات جفاف ، ومن هنا كان اللجوء إلى الأولياء في طلب نزول الغيث ، وهو أيضا من الهياكل الثابتة في النموذج الولائي الذي مثله الشيخ عبد السلام الأسمر .

وهناك الوظائف المعنوية لمتطلبات الحياة الروحية وهي الأقل حضورا من خلال تتبع كرامات الشيخ الأسمر منها التنبؤ بالمستقبل ، وبالموت ، والمكاشفة والإطلاع على الغيب ، فكان يحدث الصبيان بما أكل أهلهم في البيت ، والرؤى (رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورؤية الخضر عليه السلام مناما وبقطة)⁽³⁵⁾ ؛ ولقد مكنته تلك الكرامات من اكتساب شرعية واعتقاد لدى الخاصة والعامة ، وجعلت منه أعلى سلطة روحية يُحتجّ بها ولا يُحتجّ عليها ، حيث اضطلعت كراماته بدور مركزي في تدعيم سلطته وتنميتها ، وحمل الناس على الاعتقاد فيها وتجنّب انتقادها أو كسر شوكة صاحبها ، بل إنّ تلك السلطة قد بلغت ذروتها حين تحوّل الشيخ إلى معالج ، وممارس للطبقات ذات الوظيفة الشفائية كالمسح باليد فقط دون تفل مقترنة بدعاء ، والمسح باليد المشفوع بالدعاء ، والمسح المشفوع بتفل ، وغير المقترن بدعاء ، والرقية ، والتفل ، وشمل علاجه حتى اليهود من أهل طرابلس⁽³⁶⁾ .

كما جاءت كتب المناقب التي تناولت الشيخ حافلة بالكثير من الأخبار التي تؤكّد سلطته الروحية من خلال آلية استجابة الدعاء وتأكيده مسار العقاب الذي يلحق المغضوب عليهم (مرض ، موت ، فقدان السلطة ، والجاه) ، والبركة ، والحوط الدنيوية ، والأخروية ، التي ينال الممتثلين لأوامره ؛ وخولت هذه الوسيلة للولي تعزيز مكانته لدى الخاصة

³² (ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 6 - 7 ، 10 ، 18 ، 26 ، 31 .

³³ (ابن عبد السلام : المصدر السابق ، ص 68 ، القطعاني : ، ص 69 ؛ ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 78 ، 82 ، 98 - 111 ؛ ولقد ذكر الكاتب

لوصيته أنه اجتمع عندهم في حياته من كراماته أربع مجلدات ، كل مجد في نحو عشرين كرامة ، ابن عبد السلام : المصدر السابق ، ص 65 .

³⁴ (مما يُذكر أن سيدي راشد المحبوب أحد اصحاب الشيخ ، أنه لما فارق الشيخ وسكن ببلده صرمان ، ظلمه رجل من دائرة الوالي يقال له الشلوس جابر دبوب يزعم أن والده وضع مالا عند أبي يحيى قبل موته ، وأكثر من التعدي وعلمت أنه يريد بي سوءا فاشتكت منه ظلمه إلى عمي زكري فقال : ما ينجيك منه إلا استاذك إما يعطيك أو غيره ، فدعى عليه ببركة الشيخ فأصبح الصباح ميت من غير مرض . ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 115 - 116 . 113 -

115 ، 118 ؛ ابن عبد السلام : المصدر السابق ، ص 101 .

³⁵ (ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 98 .

³⁶ (البرموني : المصدر السابق ، ص 357 .

جدلية العلاقة بين أولياء الصوفية والسلطة الحاكمة بإقليم طرابلس الشيخ عبد السلام الأسمر (880 – 981 هـ / 1475 – 1573 م) " نموذجاً "

والعامة ، وعندما يسكن الشيخ بـمكان ما ، فإنه يهب ذلك المكان حرمة دينية ، وعسكرية ، فتصير حرماً آمناً لا يتناول عليه السلطان بظلم أهله ، ولا يتعدى عليه الإنس ، والجآن ، ولا الأعراب من قطاع الطرق(37) . كانت كراماته الوظيفية ، من المفترض أن تحقق مصلحة مشتركة بينه وبين صاحب السلطة وعامة الناس وخواصهم ، إلا أن العداء المستحكم بين الطرفين لم يكن بسبب ديني بقدر كونه تنافس دنيوي ؛ وغالباً ما يعزى وقوع حدث ما – مرض – إلى تدخل خارق لولي من الأولياء بسبب التعرض المزعوم للسلطان لذلك الولي – اعتراض – انتقاد – إذابة إلخ ، وبالتالي إلى انتقام الولي أي ممارسة عنف مقدس رداً على عنف السلطان ، وهذا ما سنلاحظه عند تناول علاقة الأسمر بالقوى السياسية (الوالي ، شيوخ القبائل ، المفتي ، القاضي) .

كما كان لعبد السلام الأسمر دوراً مهماً في تجيش الحماس الديني (الدور التعبوي) حيث تكتسي مسألة الجهاد أهمية قصوى في ظل الظروف السياسية التي عرفت المنطقة وسائر بلاد المغرب الإسلامي في تلك الفترة ، وما شهدته من تفاقم هجومات الممالك المسيحية ، وتكتسي مشاركة الأولياء في الجهاد أهمية مثالية بوصفهم قوة ومثالاً يحتذى ، كما أن ظاهرة اعتقاد الأولياء كانت هي الأخرى موظفة لمكافحة ظواهر الخوف ، والخضوع ، والاستلام ، حيث توضع الولاية بركة الولي ، وخطر العدوان الخارجي وجهاً لوجه ، وزوال هذا بتلك(38) ، حيث أن الولاية لا تواجه الخطر الخارجي بل هي تلغيه ، أي إلغاء إمكانية وقوع الخطر بواسطة بركة الولي حامي البلاد ، والمؤمن عليها بحيث لم تكن السلطة الروحية وحدها هي من تمنح الشيخ قوته ونفوذه ، بل إن له وظيفة حربية ؛ فقد ذكر كيف استغاث الناس به عندما وردهم نبأ توجّه الأسبان لاحتلال مدينة طرابلس ، وأنه كان من بين المدافعين عنها(39) ، غير أن الدور لم يكن واضحاً بحيث يمكن دراسته بشكل مفصل ، ومدى مساهمة قوته الروحية فيه ، ولكن ما ورد بالكتب عن اتصال مراد آغا به ، وكيفية اهتمام سلاطين الدولة العثمانية بالأولياء الصالحين والتقرب منهم بتزويد زواياهم بالإقطاعات وإعفائها من بعض الجبايات ، مقابل مرونة التعامل مع السلطة ، ودعمهم الأمن ، وتوفير الطاعة ، وهما شرطان ضروريان لتماسك الحكم ، واستمراره .

وليس الجديد تدخل الولي عندما يستغاث به ، بل هو الدور الجديد الذي أصبح يضطلع به ، بحيث علاوة على أنه الملاذ والملاجئ عند الضيق أو الحاجة ، فإنه أصبح يضطلع بدور يمكن وصفه بالسياسي والريادي أي نوع من الزعامة السياسية(40) .

رابعاً : علاقة الولي (عبد السلام الأسمر) بالسلطة (شيوخ قبائل ، مفتي ، والي ، قاضي)
(الخوف وسلاح الدعاء والانتقام) المدلولات والأبعاد والنتائج :

" لا يسمى الولي ولياً كاملاً ، حتى يقتل الله بسببه عدد شعر رأسه من الظلمة ، والجبابرة ، والفسقة ، والزنادقة " (41) . إن تحديد مجال أو حقل السياسي لا يزال يثير الجدل بين علماء الأنثروبولوجيا ، ولكن ما اعتمدناه في البحث قائم على تحديد السياسي من حيث علاقته بمبدأ السيطرة وبمبدأ القوة ، ومن حيث المفهوم الوظيفي للكلمة يمكن تلخيصه بالوظائف التي تؤمن التعاون الداخلي ، والدود عن سلامة المجتمع تجاه الأخطار الخارجية ، بحيث تسهم في عملية البقاء المادي للمجتمع ، وتسمح بضبط ، وتنظيم الخلافات وحلها ، إضافة إلى وظائف اتخاذ القرارات وتسيير الشؤون العامة(42) ؛ وبهذا المفهوم نجد أن شيوخ القبائل أو ما عُرف خلال العهد الحفصي بقواد البوادي وهم ممثلو المخزن وسلطته ، والمسؤولون المباشرون عن إقرار الأمن ، والعدل ، ومراقبة سير الحياة داخل مجتمعهم ، حسب الشريعة والأعراف من جهة ، وهم الواسطة بين المخزن ورعاياه من جهة أخرى ، غير أن سلطة قواد البوادي كانت فردية مطلقة تتسم بالبطش والقهر ، وأكل أموال الناس بالباطل فمن هنا جاء نعتهم بالظلمة ومستغرقى الذمة ، فلا يحكمون بحق ، ولا تستند أحكامهم

(37) إغارة الأعراب على زروع الناس ونهب مواشيهم ، وحين تحصل بركة الشيخ " كل طير إذا نزل على زرعكم مات " . ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 70 .

(38) ينظر الامثلة في كتاب الولاية والمجتمع ، ص 263 .

(39) القطعاني : المرجع السابق ، ص

(40) نللي سلامة العامري : التصوف ، ص 69 .

(41) البرموني : المصدر السابق ، ص 135 .

(42) نللي سلامة : الولاية ، ص 253 .

إلى الشريعة بل إلى الفراسة ، وتأويلات أهوائهم(43) ؛ فكان طبيعياً أن يخرج الناس عليهم بالالتفاف حول الأولياء وإن كان الأمر في ظاهره اجتماعياً ، إلا أنه تطور ليصبح مسلماً سياسياً بتولي بعضاً منهم لمناصب سياسية(44) . أما فيما يخص الشيخ عبد الأسمر فبحكم موقعه الاجتماعي ، نجد أنه قد مارس دوراً يفوق دور الساعي إلى السلطة ، دوراً له بُعداً إصلاحياً وأخلاقياً متصديراً لمختلف مظاهر الظلم الناجم عن حراية الأعراب وقطعهم للسبل وتعتيهم على النجوع والمزارع ، أو تسلط شيوخهم ، فكان يدافع عن مصالح الناس ، من هنا حظي بثقتهم مما قد يشكلون الخوف من انفرادهم بالسلطة لنفسه ، ولعل هذا ما يفسر وجوده في علاقة تنافس وعداء مع ممثلي السلطة ، والمعارضة المكشوفة لهم هي التي أدت بالأسمر إلى النفي والطرده من كل مدينة ينزل بها ، بسبب طريقته أو بسبب هجومه على الحكام ، وما سببه من زعزعة لبعض التقاليد ، أو الأعراف الاجتماعية المرتبطة بالبنية القبلية من جهة ، وعلى مستوى أنماط التضامن والولاءات من جهة أخرى .

فلا تكاد تستثني ميداناً من ميادين الحياة الاجتماعية إلا ونجد الشيخ عبد السلام الأسمر قد تدخل فيها ، ومارس فيها تأثيره وكان فيها صاحب سلطة ، تظهره بها كتب المناقب في علاقة منافسة مع الحكام ، وكأننا بالفعل أمام إشكالية من سيجسد دور السياسي في المجتمع الطرابلسي ، هل هي السلطة السياسية أم هو الولي لما يُنسب إليه من سلطة ، ومن تدخل فعّال ومن تأثير في كل مجالات الحياة العامة علاوة عن الخاصة ؟ .

ومن ناحية أخرى نجد أن موقف الفقهاء والعلماء من بعض ممارسات الأولياء الصوفية غير المشروعة – حسب وجهة نظرهم - تحول إلى صراع بين الطرفين ، لانشغال الصوفية في شؤون الناس خاصة الاقتداء في بعض القضايا ، مما ينافس مباشرة القضاة ، وما يعتبرونه من الصلاحيات الخاصة بهم دون غيرهم من الفئات الاجتماعية ، والجانب الأهم في هذا الصراع يتمثل في التنافس على الهيمنة ، أو السيطرة على المجتمع ، وعلى مستوى الوظيفة الاجتماعية المترتبة على كل فئة حسب التنظيم الاجتماعي الذي كان سائداً في المجتمع .

وما نلاحظه أن علاقة الأولياء بالفقهاء كانت مريرة تتخطى الجوانب الدينية ، وبما أن الانتصار في الغالب كان لصالح الفقهاء في بداية الأمر ، جابه الأولياء المتصوفة هذا الانتصار بالكرامة التي تعني القطع مع المعتاد أو الخارق للعادة ، ونظر إليها الفقهاء بأنها مجرد ادعاءات ادعاها الصوفية ، وأظهروها للعوام حتى يصطادوا بها قلوبهم فيتبعونهم(45) ، ذلك الصراع تفاقم ولاسيما أمام تفاقم دور الولي في الحياة الاجتماعية ، واكتساحه ليس فقط الدائرة الدينية ، بل كذلك الدائرة السياسية والثقافية مقابل نفوذ الفقهاء(46) ؛ وهذا ما سنراه من خلال سرد المحن التي تعرض لها الأسمر خلال سنوات حياته الطويلة التي قضاها متنقلاً ما بين (زليتن ، ساحل الأحامد ، طرابلس ، غريان ، بني وليد ، تاورغاء ، مصراته ، زليتن كآخر محطة له) .

إن حضور الشيخ الأسمر بمجتمع بلدته زليتن ، وممارسته الأدوار والوظائف التي تنسبها إليه كتب المناقب كخدمة الناس وقضاء حوائجهم ، والتدخل لفائدتهم لدى السلطة القبلية ، إضافة إلى دوره التثقيفي ، ومساهمته في إقراء القرآن ، والعلوم الدينية ، وإنشاده الأشعار الصوفية مع ادخاله البندير ، جعله في مواجهة مباشرة مع علمائها وفقهائها ، فقد تسلطوا عليه وألبوا عليه العامة " ورموه بالسحر " ، ولاسيما بعد استعماله للبندير فخرج منها على غير راض منفياً لسبع مرات يتنقل ثم يرجع ، ولم ينته هذا الإنكار إلا بعد عودته الأخيرة ، وعفو والي طرابلس عنه ، ولقد كان الشيخ سالم عبد القادر الحامدي ، والشيخ سعيد التطاوني ، والشيخ سالم بن طاهر من أشد المنكرين عليه ببلده زليتن فجمعوا له جماعة من الفقهاء ، والطلبة وأهل البلاد ، وشيخ البلدة وقائدها ، وبعد جلسة حوار وسماع استطاع الأسمر اقناعهم بقبول طريقته وببنديره(47) .

ولم يبق عليه منكر إلا الفقيه مبارك الغيثي وابن عمه سالم الشهير بالمباركي ، اللذين أكثرا من الاعتراض عليه بالهوى والحسد ، ووفقاً على مفترق الطرق ليمنعاً الناس من الورود إليه ، فكان لابد للشيخ الأسمر من استخدام سلاح الدعاء ، إلا

43 (محمد حسن : المصدر السابق ، 1 / 530 – 531 .

44 (سبق وان تنبّهت الدولة الحفصية لازدياد نفوذ الأولياء بإقليم طرابلس ، فعملت على الحد منه ، ولعل ما قام به الحاكم العسكري العليج نبيل أبو قطاية ، حين قبض على الولي ابن أبي صعفونة سنة 833 هـ / 1429 م ، وقطع رأسه وإرساله لتونس دليل على تلك السلطة . الزركشي : المصدر السابق ، ص 112 ؛ اتوري روسي : ليبيا منذ الفتح حتى 1911 ، تعريب خليفة التليسي ، مكتبة الاسكندرية 1991 م ، ص 146 .

45 (نللي سلامة : الولاية ، ص 450 .

46 (المرجع نفسه ، ص 454 .

47 (القطعاني : المرجع السابق ، ص 58 ؛ ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 78 – 88 ، 90 .

جدلية العلاقة بين أولياء الصوفية والسلطة الحاكمة بإقليم طرابلس الشيخ عبد السلام الأسمر (880 – 981 هـ / 1475 – 1573 م) " نموذجاً "

أنه لم يدع عليهما بالشكر ، إلا بعد أن أذن الله له ثلاث مرات في الدعاء عليهما بما صورته " اللهم اقطع البركة منهما وأمتعهما بين الحر والبرد وسوء العاقبة " ، فأهلكهما الله سنة 974 هـ / 1566 م ، بسبب دعاء الشيخ عليهما⁽⁴⁸⁾ .
أما تأسيس الزاوية فقد ترافق أيضاً مع بعض المعرقات ، لاسيما وأن التوجيه الإلهي أمره بالإقامة وبناء زاويته بين ألد خصومه (أولاد غيث) الذين كانوا أشد الناس بلاء عليه ، وهم سبب طرده في كل مرة ، ووقع له منهم الظلم وإساءة الأدب ، ولكن من الواضح أن الأمر قد تغير بعد مدة من هلاك سيد القبيلة مبارك وابن عمه ، حيث نجد من بين تلاميذه الشيخ صالح بن مبارك الغيثي (ت 989 هـ / 1581 م)⁽⁴⁹⁾ .

ولا تخلو فترة إقامته بساحل الأحامد من المحن ، ولاسيما ما تعرض له من تسلط شيخ القبيلة همام ، مفتيه الجائر الظالم مبارك بن يحيى ، بسبب ازدحام الناس عليه وتجاوبه معهم دافعهم لذلك التبرك ، أو التلمذ على يديه ؛ وظهرت له كرامات كثيرة واجهها المعترضين عليه ، برمييه بالسحر وممارسة الشعوذة ، وبالضرب والشتم وتفريق المريدين عنه وانتهى الأمر بطرده من المنطقة ؛ ورغم تكرار الظلم منهم لم يدع عليهم بشيء ، حتى أذن الله له في الدعاء عليهم من خلال ثلاث مراحل (المرحلة الأولى الدعاء لهم بالتوبة والموت على الخاتمة ، والمرحلة الثانية بنفس الدعاء أي بالحسنة ، تعنت أهل السلطة الذين امتدت أيديهم لقتل ابنه عبد الدايم على رؤوس الأشهاد ، وما تعرض له من عنف ، غيرت صيغة الدعاء " بالشطحة " بالمرّة الثالثة وأصبح سلاحاً عنيفاً ، بأن دعا عليهم بالشتات والهلاك إلى أن يبقوا على ثلاث فرق ثم بهلاكهم وخلاء بلادهم منهم ، وهو الدعاء الفعلي وتحدث اجابة الدعاء ليس بتوبة المعارضين له ، بل بشقهم على ثلاث فرق أولاً ثم اهلكهم الله وخلاء بلادهم منهم - إلا من هو واثق الصلة بطريقة الشيخ كأولاد سيدي عبد القادر ، وهما الشيخ سالم وأخوه عقبة - بذلك تكتمل وظيفة الدعاء ، ويكون درس لمن تحدّثه نفسه بالتطاول على الولي أو محاولة النيل منه⁽⁵⁰⁾ ؛ جاء تبرير الدعاء بكونه بوجه شرعي ، وإذن إلهي ، وهنا نتساءل ما هو الموقع الذي يحتله الخوف ضمن آليات طاعة الولي ، وبالتالي كأحد مقومات فرض السيطرة الكاريزماتية من خلال استعمال الولي لسلاح الدعاء ؟
طرده وخروجه من ساحل الأحامد دفعه إلى النزول بعاصمة الإقليم مدينة طرابلس فترة حكم المشايخ ، وحينها قال : " طرابلس بلادي وأولادها أولادي فمن لم يثق منهم بأورادي لم يفلح هنا ولا غادي "⁽⁵¹⁾ ، ويبدو أن علاقته بالسلطة الحاكمة هناك كانت مضطربة منذ البداية ، وإن كانت كتب المناقب لا تحمل في طياتها الحقيقة التاريخية البحتة ؛ إلا أنه مما لا شك فيه هو اعتراض تلك السلط الحاكمة على نفوذ الشيخ ومحاولاتها الحد منه ، وهذا ما اختلف بعد وقوع المدينة تحت السيطرة العثمانية ، حيث سعى أول والي (مراد آغا) إلى كسب ود الشيخ وإرضائه ، وتمتعت زاويته بعدها بالكثير من الإعفاءات ، والحماية ، والرعاية من طرفه ، واعتبارها فضاء حرماً ، أو محرماً ، على عادة سلاطين الدولة العثمانية في التقرب من الأولياء ، واستغلال نفوذهم في الاعتراف بسلطتهم .

كان المسجد مركزاً للحياة الصوفية حيث يجلس الولي عبد السلام الأسمر ، ومكاناً للاجتماع ، وبه تنظم مجالس الذكر ومواعيد الرقائق ، ويتخذ مكاناً لسكناه ، أما كسبه وتكسبه فلا نكاد نعلم عنه شيئاً سوى كونه كانت شديد الاعتراض عن أي رزق لا يعلم مأثاه ؛ ولقد طمح الشيخ بنزوله بالمسجد الأكبر بمدينة طرابلس (جامع الناقية) إلى تجسيد سلطته من أعلى منبر بالمدينة حتى يكون له سلطة دينية رقيية على السلطة السياسية ، ويُسمع الولي ما يلزمه فلم يكن يتوانى عن نقد السائس وفضح ظلمه وغفلته عما يجري حوله من مفاصد ، وما لبث أن شاع خبره بالعلم ، والزهد ، والعبادة وإظهار الكرامات ، واجتمع عليه خلق كثير من كل ناحية واستعمل لهم السماع المعبر عنه بالحضرة ليلتي الإثنين والجمعة ، " ... فتحيّرت منه قلوب الحسدة والمنكرية عليه وتقوت بهم مادة الاعتراض بالمحن ، والفتن ، والأغراض الفاسدة ، وحصل له من هؤلاء الحسدة أشد البلاء ، وأعظمه ، حيث أن كل ذي نعمة محسود ، وهكذا جرت عادة الله بتسليط الخلق على الأولياء في كل عصر ، ولاسيما أهل هذه الطريقة العروسية التي هي لب الشاذلية "⁽⁵²⁾ .

بدأت محنة الأسمر بمدينة طرابلس ، مع قاضيها " أبو محمد " ويبدو أن صراعه معه ، كان صراعاً على الصلاحيات ، عندما أضحت سلطة الولي أعظم شأنًا من السلطة السياسية التي كان يحميها القاضي ومن يدور بفلكه ، ولقد اتخذ الصراع

⁴⁸ (البرموني : المصدر السابق ، ص 78 ، 103 – 104 ؛ ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 170 – 179 .

⁴⁹ (ابن مخلوف : المصدر نفسه ، ص 100 .

⁵⁰ (القطعاني : المرجع السابق ، ص 58 ، 101 ، 103 ؛ ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 91 – 92 ، 151 .

⁵¹ (ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 95

⁵² (ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 93 – 94 ؛ القطعاني : المرجع السابق ، ص 58 ، 61 .

شكل اعتراض على الولي لاشتغاله بشؤون الناس لاسيما في أمور الشرع وأحكامه ، مما ناقس مباشرة القاضي ودائرة نشاطه وما يعتبره من الصلاحيات الخاصة به دون غيره من الفئات الاجتماعية .

لذلك سعى القاضي أبو محمد إلى إيقاع الفتن بين الشيخ ، وأصحابه ومريديه ورميه بالزندقة ، فتفرق عنه الكثير من الفقهاء ، في حين كان رد فعل الشيخ لا يخرج عن نطاق الصبر على ظلمه وتعتديه وتشتيته لفقرائه وذلك لسعة أخلاقه ؛ وتطور الأمر إلى قيام القاضي ، وبعض أصحابه بتقديم شكاية إلى الوالي " قالوا له : أن هاهنا رجلا من أهل يزلتين يزعم أنه القطب ويأم الناس ، فأخرجه لنلا يشوش عليك بلادك فتخرج من بينهم على غير اختيارك " (53) وحصل للشيخ من هؤلاء الحسدة أشد البلاء وأعظمه ، وهنا تخير الوالي بين سلطته وبقاء عبد السلام الأسمر بطرابلس ، ولا زالوا على ذلك حتى ألزمه بالخروج من طرابلس ومن سائر قرأها ، وكان معه يوم خروجه خمسة عشر رجلا من مريديه ، منهم البرموني الذي ذكر في مناقبه بأن شيخه عند طرده من المدينة كان يردد " فويل ثم ويل ثم ويل لكل فقير من قاضي البلاد " (54) .

بعد طرد الشيخ من طرابلس توجه إلى جبل غريان ، حيث سكن بكاف يسمى بتكبيرة ، (وهناك أيضا وقع له من الظلم وإساءة الأدب ما لم يقع له في محل آخر ، عدا أولاد سيدي ساعد وأولاد بو سلامة ، فإنهم عظموه واعترفوا بفضلهم وشرفه) ، ثم انتقل من جبل غريان ومن جميع البلاد الطرابلسية ونزل بمنطقة بني وليد - بدل على أن غريان كانت تتبع والي طرابلس ، في حين كانت مناطق ورفلة خارج نطاق سلطته - أقام بقمة جبل " القلعة " الواقع بوادي سوف الجين لمدة سبع سنوات ، وطوال وجوده هناك كان يردد : " ما انجلت عنا الأنكاد حتى فارقتنا الأضداد " (55) .

وحين بلغت مسامع والي طرابلس ، أن الشيخ عبد السلام الأسمر قد قرر الخروج من منفاه ، فسلط " الله الحسدة على الوالي بأن يوجه له من يؤذيه ، ويسئ إليه ، ويقولون عنده بما يكرهه ، وما زالوا به حتى جهز له جيشا كبيرا وقصدوه بالقلعة ؛ يقود الجيش الوالي نفسه يرافقه القاضي أبو محمد رئيس " فئة الأضداد " كما وصفه البرموني (56) ؛ ولكن ما أن قطع الجيش بعض المسافة ونزل بوادي يسمى " سوسو " للراحة ، والمبيت ، حتى تدخل الوالي عبد السلام الأسمر لجعل الوالي يتراجع عن طلبه وما يهدف إليه ، وهذا ما جسده رؤيا الوالي نفسه على هيئة حمار يركبه الشيخ ، ويطوف به معسكر الجند طوال الليل ؛ وعندما قص الرؤيا على القاضي أنكر عليه الأمر وأقنعه بكونها مجرد " شعبة صنعها لك عبد السلام وأنت طننت أنها كرامة ... " (57) ، فالإنكار والإصرار من قبل القاضي جعلوا الوالي وجيشه يتقدم باتجاه القلعة ، لكن القدرة الإلهية تتدخل وترسل عليهم طير الخطاف الذي ملأ عليهم الأفق " ... فإذا التفت أحدهم لناحية الجيش ابصره ولم ير شيئا من ذلك الخطاف وإن التفت للناحية التي بها الشيخ لم ير شيئا لكثرة ذلك الخطاف ... " (58) ، وللمرة الثانية يصير القاضي على كون الأمر " شعبة لا كرامة " ويأمر الجيش بالتقدم ، فتظهر غيوم شديدة وسواد هائل يرمي الدخان الحار حتى غشيهم ، وهنا أيقنوا بالهلاك وردد الجند " ما لنا ومال هذا الشيخ " (59) ، وعلموا أن ذلك من بركة الشيخ ولا قبيل لهم للمواجهة ، إلا بالاستغاثة ، والتضرع إلى الله لرفع البلاء ؛ خوف الوالي من تفرق جنده عنه جعله ينصاع لهم ويقرر الرجوع إلى مدينة طرابلس ، وهنا يتحقق الانتصار للشيخ بفضل الدعم الإلهي ، وترافق مع ذلك توبة الوالي وطلبه السماح منه وأعطاه الإذن باختيار ما يوافقه من البلاد للسكنى بها هو وأصحابه دون التعرض لهم (60) .

وتعزى عادة ارتحال الشيخ بين كل تلك المناطق ، إلى خلاف بينه وبين النخب المثقفة من علماء وفقهاء ومفتين ، فالأمر ليس بمستبعد إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الشعبية المتزايدة للشيخ الأسمر والتفاف الناس حوله بما لم يألفه الإقليم قبل ذلك ؛ وربما بالفعل سعى ضده لدى الوالي وهذه الظاهرة ليست بجديدة ؛ ولكن لا يمكن اعتماد كتب المناقب وحدها كمصدر لسيرة الوالي الأسمر وما لاقاه من ظلم واضطهاد ؛ وعلى كل حال ما يهمننا هنا هو وجود دوافع سياسية وراء الارتحال ، ويمكن أن نلاحظ من خلال هذا السياق ضعف سلطة الحاكم أمام سلطة الولي ، فقد شهدت العلاقة هنا تغييرا في موازين القوى آل إلى الولي ، فبعث مرسول من عنده - أي الوالي - يقره السلام ويخيره النزول بأي بلد يشاء ، وعندما يكون

(53) ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 93 .

(54) المصدر نفسه : ص 94 .

(55) ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 99 .

(56) البرموني : المصدر السابق ، ص 232 .

(57) المصدر نفسه ، ص 233 .

(58) ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 99 .

(59) ابن مخلوف : المصدر السابق ، ص 98 - 99 .

(60) المصدر نفسه .

جدلية العلاقة بين أولياء الصوفية والسلطة الحاكمة بإقليم طرابلس الشيخ عبد السلام الأسمر (880 – 981 هـ / 1475 – 1573 م) " نموذجاً "

الخبر من النوع الذي يحط من شأن قاضي أو ممثل لسلطة الوالي نفسه ، يظهر الولي عبد السلام الأسمر ، بمظهر المتفوق عليهم جميعاً ، فطبيعة الاعتقاد الصوفي قائمة على مدرج يرتقي بالولي إلى منزلة قريبة من النبوة فيصليه بالذات الإلهية مباشرة مما يؤكد مسألة الترهيب والتخويف من سطوة الأولياء وانتقامهم .

النتائج :

- تبدو سيرة الشيخ عبد السلام الأسمر منفردة عن سيرة الكثير من أولياء عصره ؛ فهو يجمع بين الثقافة الفقهية المتمكنة والنزوع الصوفي الغالب عليه ، وأكثر ما يشدنا في سيرته علاقته بممثلي السياسة الدينية من فقهاء وقضاة وأصحاب السلطة الدنيوية من والي ومشايخ قبائل ، مما كان سبباً في محنه ومحن عائلته .
- شجاعة الشيخ في مواجهة أصحاب السلطة وفقهائهم وقضاةهم الذين منعوا الخروج على الحاكم ولو كان ظالماً مستبدًا ، فكان رقيب على المستبد استغل سلطته في خلق توازن اجتماعي لحماية الناس ، وإطعام الجياع ، وإجارة الملهوف رغم المحن والشدائد التي تعرض لها في حياته ، وما تعرض له أولاده من بعده .
- في وصيته الصغرى يحذر من مخالطة أبناء الدنيا الذين لا هم لهم إلا هي ، والظلمة والسلطين فلا تخالطوهم ، ولا تقفوا بأبوابهم إلا لضرورة ، ومشقة فادحة ، ولا تأكلوا من طعامهم شيئاً ؛ إلا أن إشكالية حاجة المجتمع إلى أوليائه ومسألة قضاء الحوائج جعلت من الولي هو المرجع ، والملاذ ، والملجأ ، وتشعبت القضايا وتعددت الحاجيات المطلوب منه التدخل لأجلها والتوسط فيها ، مما أوقعه في محن متعددة مع أصحاب السلطة ؛ بحيث نجد أن مصلحة الولي في خدمة مجتمعه كانت وحيدة الجانب ولم تكن مشتركة مع ممثلي الجهاز الحاكم .
- لقد اضطلع بدور مركزي في الحد من استبداد الحكام ، فكان نواة رقيب على السائس يحتاجه الحاكم ليبارك سعيه ولا يحتاج هو إلى الحاكم .
- ساهم في خلق مسافة نقدية بين العالم والحاكم تظلّ درساً للذين امتنهنوا التملق للحكام وباعوا ذمهم من أجل مصالحهم ، وكان هاجسهم تشويه صورة المتصوفة ، وتهميش دور الأولياء الصالحين في حركة التاريخ الإسلامي .
- سلطة الوالي ومشايخ الأعراب ومشايخ الزوايا ، كانوا أهم القوى الاجتماعية المتصارعة في تلك الفترة ؛ وأصبحت الزوايا الصوفية تستقطب أهل الجذب ، والأحوال ، وتثير الانتقاد ، والاعتراض في نفس الوقت الذي أصبحت فيه مركزاً لسلطة حقيقية .
- الصراع الخفي بين الفقهاء والأولياء تجاوز مستوى خلق البدع وإظهارها ، إلى ما هو أشد وأعمق صراع حول الهيمنة وبسط النفوذ ، وكون الصوفي جعل من نفسه ناطقاً بالحقيقة الدينية ، ولاشك أن ذلك سيخلق صراعاً بينه وبين المدعين لهذه السلطة من فقهاء وعلماء دين ، كما أن أهمية هذه السلطة ذات علاقة بينها وبين السلطة السياسية المتوقفة على السلطة العلمية الدينية .
- أخيراً هناك إشكالية نود الإشارة إليها وعليها دراستها ، ألا وهي في ظل تلك الأوضاع السياسية المضطربة كيف استطاعت قبائل إقليم طرابلس المحافظة على النظام دون وجود دولة مركزية ؟ وهل تكمن الإجابة في طبيعة الاقطاع المشيخي الذي كان متبع زمن السلطنة الحفصية ، والروح الاستقلالية للقبائل ، وبروز أرسقراطية محلية قوية لها مصالحها ، ودور الأولياء الصوفية في إقامة التوازن الاجتماعي ؟ .

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر :

- أحمد بابا التتبيكتي : نيل الإبتهاج بتطريز الذبياج ، دار الكتب العلمية ، بيروت
- البرزلي : جامع فتاوى البرزلي ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2002 م .
- البرموني : روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطار ، النص الكامل ماعدا رسائل الشيخ الأسمر لمريديه ، تحقيق ودراسة عبد الحميد الهرامة ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، 2009 م
- التاجوري : فتح العليم في مناقب عبد السلام بن سليم ، دار الكتب الوطنية
- التجاني : رحلة التجاني ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، طرابلس .
- الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 م .

- الحشائي : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، تقديم علي المصراطي ، دار لبنان ، بيروت ، 1965 م
 - ابن خلدون : العبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1959 م .
 - الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ، 1872 م .
 - الشماخي : كتاب السير ، تحقيق محمد حسن ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2009 م .
 - ابن عبد السلام : كتاب الاشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات ، مكتبة النجاح ، طرابلس
 - العبدري : الرحلة المغربية منشورات بونة للبحوث والدراسات ، الجزائر ، 2007 م
 - العياشي : الرحلة العياشية ، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي ، دار السويدي .
 - ابن غلبون : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، تحقيق الطاهر الزاوي ، القاهرة ، 1930 م .
 - القطعاني : القطب الأنور عبد السلام الأسمر ، دار الكتاب الليبي ، 1993 م .
 - ابن مخلوف : تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الابرار ، مكتبة زهران ، القاهرة ، 1997 م .
- المراجع :**
- اتوري روسي : ليبيا منذ الفتح حتى 1911 ، تعريب خليفة التليسي ، مكتبة الاسكندرية 1991 م
 - الباروني : الأزهار الرياضية في ائمة وملوك الإباضية ، دار بو سلامة ، تونس ، 1986 .
 - البرغوثي : تاريخ ليبيا الإسلامي ، منشورات الجامعة الليبية ، دار صادر ، بيروت : 1972 م .
 - شارل فيرو : الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ، تعريب محمد عبد الكريم الوافي ، منشورات جامعة قاريونس ، 1998 م .
 - الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، 2004 م .
 - كوستانزيو برنبا : طرابلس من 1510 الى 1850 م ، تعريب خليفة التليسي ، الدر الجماهيرية للنشر والتوزيع ، 1985 م .
 - محمد العروسي المطوي : السلطنة الحفصية تاريخها السياسي و دورها في المغرب الاسلامي -دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 م .
 - محمد حسن : المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي ، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، تونس ، 1999 م .
 - مصطفى عمران رابعة : رسائل الأسمر إلى مريديه ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، 2003 م .
 - نللي سلامة العامري :
 - التصوف بإفريقية في العصر الوسيط ، دار كونتراست للنشر ، تونس ، 2009 م .
 - الولاية والمجتمع ، دار الفارابي ، بيروت ، 2006 م .

**The Debate of the Relationship Between Sufi Saints and Ruling
Authorities in Tripoli Region
Sheikh Abd Al-Salam al-Asmar (880-981 AH / 1475-1573 AD)
as a Model**

Asma Musa Zayed

Faculty of Arts, Bani Walid University – Libya

Ali Muhammad Samio

Faculty of Arts, Misurata University – Libya

Abstract:

The region of Tripoli has succeeded, from an early period, in attracting many Sufi experiences, which brightened on its immediate and, sometimes, distant surroundings, and made it a privileged position, a stage and a seat for a rich spiritual life that centered around athenaeums and mosques. A large number of those Sufis were distinguished by a scientific level that combined jurisprudence and Sufism, or science and mysticism, and they had their role in spreading religious culture in their era. However, most of the Sufis maintained an ascetic tradition that maintained a model of loyalty, the most important of its components are: Fasting, praying, piety, asceticism, isolation, idleness, abstinence and minimizing food and clothing, and refraining from assuming the judiciary, and from dealing with the ruler. However, the ruling authorities often took an aggressive attitude towards those Sufi groups. This made those groups think that complete isolation was something produced by the past with its circumstances, and they could no longer adopt it due to the exacerbation of adversities in their time, and the oppression of the people of power and prestige who were driven behind their lusts, and their destructive desires to prolong their survival. So, they fought the saints of God from Sufism.

Perhaps the ordeals that Sheikh Abd al-Salam al-Asmar (880-981 AH / 1475-1573 AD) went through give a clear picture of the dialectical relationship between Sufi saints and the ruling authorities during the ninth and tenth centuries AH / the fifth and sixteenth centuries AD.

Keywords: dialectic, Awlia, Sufism, Tripoli.